

النظريات التفسيرية للظاهرة الدولية المنظور الواقعي أنموذجا

د. محمد قروش (1)

مقدمة:

يعتبر المنظور الواقعي للعلاقات الدولية من بين أكثر النظريات المفسرة للظاهرة الدولية و السلوك الخرجي للوحدات السياسية التي تمتاز بالقوة التفسيرية لأغلب ظواهر العلاقات الدولية بحيث سيطر هذا المنظور على فترات زمنية طويلة ، و عن كان هذا الأخير عرف أوجه خلال الحربين العالميتين و حتي الحرب الباردة ،فأنه مازال مستمرا في قوته التفسيرية على يومنا هذا ، بالرغم من المستجدات التي طرأت على العلات الدولية و التي اصبت منظورات أخرى تنافس المنظور الواقعي في القدرة التفسيرية خاصة تلك التي تتعلق بالظواهر التعاونية أو ذات البعد القيم....و يعتبر هذا المنظور بمثابة نظرية تفسيرية ذات اتجاهات متعددة فهو مدرسة قائمة بذاتها في العلاقات الدولية . و يجمع أغلب الباحثين على غعتبر هذا المنظور بمثابة نظرية محافظة تهدف إلى تبرير سلوك صانع القرار ذو السياسة الخارجية التي تعتمد على القوة و سياسات القوة و الهيمنة مثل السياسة الخارجية لبعض الدول الكبرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية ، فهو ولد في إطار المدرسة الانجلو سكسونية التي كانت تلاحظ بشكل مباشر واقع و تطورات السياسة الخارجية الأمريكية و عايشت كل فترات تطورها.

تتقسم السياسات الخارجية للدول إلى سياسات هجومية و أخرى دفاعية ، و هذه أيضا من بين اتجاهات هذا المنظور ، و في هذا المقال نحاول أن نقف عند أهم مسلمات و اتجاهات هذا المنظور بالإضافة إلى غبراز القوة التفسيرية لهذا المنظور للظواهر الدولية . وعليه فماهي مسلمات و اتجاهات المنظور الواقعي للعلاقات الدولية ؟و إلى أي مدى يمكن أن نعتبر هذا المنظور ذو قوة تفسيرية للظاهرة الدولية ؟ و للأجابة عن هذه المشكلة البحثية نضع الخطة التالية :

مقدمة :

- I. المحور الأول : التأسيس الفكري للمنظور الواقعي .
- II. المحور الثاني : المقاربات التنقيحية في المنظور الواقعي.

خاتمة:

¹. أستاذ محاضر "ب" بقسم العلوم السياسية ، كلية الحقوق و العلوم السياسية، جامعة أبي بكر بلقايد . تلمسان.

1. التأسيس الفكري للمنظور الواقعي:

يجزم أغلب الباحثين في مجال العلاقات الدولية الواقعية السياسية أو الواقعية الكلاسيكية كنظرية ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، و هي عبارة عن توجه نظري في دراسة العلاقات الدولية، و بواورها الأولى كانت بين الحربين العالميتين، وتقوم هاته المدرسة على جملة من المسلمات النظرية، باعتبار أن الأصل في العلاقات الدولية هو الصراع و أن السياسة الدولية ما هي إلا صراع من أجل القوة، و أن التعاون حالة عرضية مؤقتة والمصلحة تحدد بالقوة، و أن الإنسان أناني بطبعه فهو ذو طبيعة شريرة. و الفكر الواقعي له روافد تاريخية، فنجد له أساسا في فكر "تيوسيديد" الذي رأى أن العلاقات الدولية هي علاقات فوضوية، كما نجد له أساسا في الفكر الإسلامي و الفكر الصيني بالإضافة إلى اعتبار الفكر الخلدوني فكر واقعي. كما نجد له أساسا أيضا عند كل من "هوبز" و "مكيافيلي"، الرواد الأوائل للفكر الواقعي.² و لقد إستمرت الواقعية لفترة طويلة من الزمن و تعتبر هذه الأخيرة من أكثر النماذج المعرفية التي سيطرت على حقل العلاقات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية، و الواقعيون لا يؤمنون ويشككون في الفكرة القائلة بوجود مبادئ أخلاقية عالمية و هم ينصَحون صانع القرار أن لا يفرط في مصلحة الدولة من أجل مبادئ أخلاقية. فأخلاقية الدولة تختلف عن أخلاقية الأفراد، فسلوك الدولة غير مقيد بأخلاق معينة مثل الأفراد. و أنصار فكرة "عقل الدولة" يؤكدون أن الدولة عبارة عن قوة أخلاقية وهو الذي يؤدي إلى خلق جماعة سياسية أخلاقية، و أن المحافظة على مصالح الدولة وجودها هو واجب أخلاقي و هذا دليل على أخلاقية الواقعية، و تختلف أخلاقيات الدولة عن أخلاقيات مواطنيها، فلا وجود للأخلاق في السياسة و إذا خير السياسي بين مصالح الدولة أو المبادئ الأخلاقية فإنه يختار مصالح وحدته السياسية.³

الملاحظ أن الباحثين في حقل العلاقات الدولية، اعتادوا تقسيم الواقعية كنظرية علمية إلى كلاسيكية و معاصرة، و يشكل عمل "والتر" الموسوم بـ *Theory of International Politics* نقطة التمييز بينهما، فهناك إستمرارية في الفكر الواقعي بين الإتجاهات التقليدية و المنقحة. و يرجع الفضل في إدخال الواقعية بصفتها نظرية لدراسة العلاقات الدولية إلى هانس مورغانتاو و ذلك سنة 1948، و في أواخر العقد السابع من القرن العشرين أحدث و"التر" هوة كبيرة عن الواقعية التقليدية و منذ ذلك الوقت أصبحت هاته الأخيرة تعرف بالكلاسيكية، و التي لعبت دور كبير في تفسير ما يحدث في العلاقات الدولية من صراع و تنافس.⁴

² جيمس دورتي و روبرت بالسيغراف، *النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية*، ترجمة: وليد عبد الحي (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، 1985)، ص. 60

³ Tim Dunne and C. Schmidt, *Realism*, in John Baylis and Steve Smith, *the globalization of world politics, An introduction to international relations*, (Oxford: University Press, 3rd edition, 2005), pp. 161-163

⁴ Glenn H. Snyder, Mearsheimer's *World offensive realism and the Struggle for security*, A Review essay international security, Vol 27, No 1, (Summer 2002), p. 149

لا خلاف بين الباحثين في كون كل الواقعيين لديهم مسلمة الواقعيون الكلاسيكيون من أمثال هانس مورغانتاو و راينهولد نايبور أن الدولة مثلها مثل البشر تمتلك ما يسميه مورغانتاو الرغبة في السيطرة على الآخرين، و هذا ما يؤدي إلى الصراع و التصادم، وقد أبرز "مورغانتاو" الخطورة التي يتضمنها نظام الثنائية القطبية الذي ظهرت خلاله الولايات المتحدة الأمريكية و الإتحاد السوفياتي، و يعطي أهمية كبرى لنظام توازن القوى التقليدي المتعدد الأقطاب، فهي مثلها مثل البشر تطمح لزيادة قوتها و الهيمنة فكل الدول تسعى الي الهيمنة فقط يرتبط عظهار ذلك بمدي مستوي قوتها.⁵

و بالنسبة للواقعية فإن مصالح أي وحدة سياسية أو امة ما تعرف بمستوي قوتها و هل هي دولة قوة قادرة أم دولة قوية غير قادرة فهناك فرق بين القوة و القدرة.⁶ و لقد نظر الواقعيون إلى الجماعة باعتبارها الوحدة الأساسية للتحليل السياسي، ومنذ معاهدة واستفاليا سنة 1648 أصبح الواقعيون يعتبرون الدولة ذات سيادة الفاعل الرئيسي في السياسات الدولية و أن الدولة هي الممثل الشرعي للجماعة البشرية و هاته الشرعية هي التي تمكن الدولة من ممارسة سلطتها الداخلية.⁷ و من ثمة يميز الواقعيون بين السياسات الداخلية و الدولية يفصلون بينهما ، و حسب مورغانتاو فإن السياسات الدولية مثلها مثل السياسات الأخرى، هي صراع من أجل القوة و هو يفرق في هذا الصراع بين السياسات الدولية و الداخلية، بحيث أن هاته الأخيرة قادرة على عرقلة سعي الأفراد للبحث عن القوة بطريقة أقل عنفا في حين أنها أقل قدرة على ذلك في الأولى، و حسب الواقعيين هذا يفسر لماذا يقع العنف في المستوى الدولي أكبر منه في المستوى الداخلي.⁸ و يختلف الواقعيون عن المثاليين، بحيث أن المثاليين يولون اهتماما كبيرا بمعايير السلوك الدولي و تطوره، أما الواقعيون فيرون أن الدولة القومية هي أساس وحدة التحليل، كما يركزون على التاريخ بشكل واسع، و يختلف الواقعيون مع المثاليين في قضية وجود إنسجام في المصالح بين مختلف الأمم، و يرون أن سبب الصراع و التصادم في العلاقات الدولية هو إختلاف المصالح بين الدول ، الأمر الذي يؤدي إلى الحروب و الصراع من أجل تحقيق المصالح، فالعلاقات الدولية في أغلبها صراع من اجل المصالح و التي تختلف في تعريفها بحسب مستويات القوة المختلفة لدي الدول.⁹

و بالنسبة لهذا الإتجاه فإن القوة مرتبطة بالموارد المادية المتاحة للوحدة السياسية إلا أن "هانس مورغانتاو" فيعرف السياسات الدولية بأنها صراع على القوة و بالتالي تصبح القوة غاية و وسيلة في نفس الوقت و هي القدرة على غرغام الطرف الآخر للإنسياح لأوامرك و تقاس القوة بالتأثير، هذا الأخير يميز بين القوة والنفوذ فالتأثير يعني القدرة على تحريك الآخرين بالوعود و الإغراءات، و أما النفوذ فيعني تحريك الآخرين بالتهديد و الوعيد ، و هما أمران مختلفان، و الدول تختلف في هذا الأمر .

⁵Stephen M. Walt, *international relation :one world,many theories,foreign policy*, No.111, special edition, (spring 1998), p.31

⁶فريد زكريا *من الثورة إلى القوة: الجذور الفريدة لدور أمريكا العالمي*، ترجمة : رضا خليفة، (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة و النشر، ط1، 1999)، صص. 27-28

⁷Tim Dunn and C. Schmidt. *Realism*, Op. cit, p.163

⁸ Ibid, p.61.

⁹جيمس دورتي، روبرت بالسيفراف *مرجع سابق*، ص. 59

على عكس ما يعتقد البعض فإن الواقعية الكلاسيكية لم تهتم فقط بالظاهرة النزاعية أو الصراعية فحسب بل اهتموا أيضا بكيفية تحقيق السلم و الأمن، و هذا ما أشار إليه "مورغانتاو" من خلال ثلاث أشكال لتحقيق السلام على المستوى العالمي، الشكل الأول إذا تم فرضه من قبل الرأي العام الدولي أنواع من الأخلاق، أم الثاني يمكن تحقيق السلام من خلال القانون الدولي، و أما الثالث يكمن أن يكون هذا السلام حقيقة إذا أقمنا حكومة عالمية، بمعنى وجود قوة مهيمنة ذات تأثير يمكنها فرض لآرائها على كل الدول ، كما أن بلية ميزان القوي هي إستراتيجية السلام فتوازن القوة و حسب "مورغانتاو" هو أكثر واقعية و الأقرب إلى التحقيق. كما أن القوة لديهم ليست على سواء فهناك غتلاف و تمايز بين بين القوة الفعلية، و القوة المقترضة للدول، فالقوة حسب الواقعية تقاس بالتأثير، فهناك دول قوية لكنها ليست قادرة، بمعنى أن هناك دول تملك مؤهلات ضخمة ، و موارد اقتصادية و طبيعية هائلة، و كذا موارد بشرية، إلا أن تأثيرها في السياسة الدولية محدود، و مكانتها أيضا محدودة، و عليه فالقوة الفعلية هي المحصلة النهائية لتفاعل عدد كبير من العوامل الداخلية والخارجية، و التي تشكل قوة الدول. فحتى تكون الدولة ذات قوة فعلية لابد لها من أن تترجم قوتها الداخلية و مواردها إلى سلوكيات في السياسة الدولية، أي التأثير في السياسة الدولية.¹⁰

بالنسبة للواقعية الجديدة تركز هاته الأخيرة على النظام الدولي كإطار تحليلي لسلوك الدول بدل إعتبار الطبيعة البشرية منطلقا في التفسير، و من أهم رواد هذا الإتجاه نذكر "كينث والتز"، و "روبرت جير فيس"، و "ستيفن والتز" و "جون مير شايمر" صاحب الواقعية الهجومية و "روبرت جبلين" صاحب نظرية الهيمنة. يرى "كينث والتز" أن النسق الدولي يتشكل من بنية و تفاعل بين الوحدات البنية السياسية لها ثلاث عناصر : وجود مبدأ منظم ، خصائص تتميز بها الوحدات، توزيع القوة داخل النسق، و حسب هذا الأخير فإن النسق الدولي يتميز بغياب سلطة موحدة و نتيجة لذلك لأن الخاصية الوظيفية للوحدات يحكمها مبدأ المساعدة الذاتية.¹¹ ويسمي هذا الأخير الواقعية الجديدة بالواقعية البنوية، و يعتبر العلاقات الدولية بنية لنظام سياسي دولي، و ميزة هذه البنية هي الفوضى، و يعتبر من المدافعين عن الواقعية و يرى بأنها لازالت تحتفظ بقوتها التفسيرية و أن التحولات الداخلية للدول لا يمكنها تغيير الطبيعة الفوضوية للعلاقات الدولية، و يرى أن الدولة لازالت تمثل الفاعل الأساسي و الشبه وحيد في العلاقات الدولية، كما يعتبر أن نظرية توازن القوى لازالت تحتفظ بقدرة تفسيرية و رغم أنها غير قادرة على التنبؤ بموعد إعادة التوازن، فإنها قادرة على التنبؤ بماذا سيحدث، و يرى أن التنظيم الدولي لا يشجع على الأحادية القطبية، و هي أقل استمرارا من أشكال التنظيم القوى الدولية، لأن القوى المهيمنة عندما تتعدد مهامها تستضعف تدريجيا، و يشبه نظرية توازن القوى بنظرية ملأ الفراغ الفيزيائية، فكما الطبيعة الفيزيائية تكره الفراغ ، فإن

¹⁰أكرافيه غيوم، العلاقات الدولية، ترجمة:قاسم المقداد ، (بيروت:دار الكتاب العربية،2001)،ص.04

¹¹ Colin Elman "Realism" In : Martin Griffiths, *International Relations Theory For the Twenty Century:An Introduction* (New York:Routledge,2007),p.13

السياسة الدولية هي أيضا تكره و ترفض القوة الغير موازنة. و يرى أن التعددية القطبية ستعود و لكن ببطء، و يرشح في ذلك الإتحاد الأوربي والصين و اليابان هي القوى الكبرى المحتملة، و يرى أن روسيا ستعود من جديد للعب دور مهم في العلاقات الدولية، لعدة إعتبارات .

في حقيقة الأمر ومن الناحية المنهجية فإن الواقعية الجديدة، قامت بتبسيط المفاهيم التقليدية وإعطائها نوع من المصادقية وإخراجها الطروحات الفلسفية التي تحمل الغموض والعديد من التأويلات، وإستفاد من العلوم الطبيعية الأخرى، في استعماله للواقعية البنوية، حيث أخذ مصطلح البنوية من الفيزياء، وشبه فواعل النظام الدولي بالبنيات (النيترون والبروتونات في حركتها حول النواة في مسارات محدد لا تملك أي إرادة في تحركاتها) وبناء على هذا المنطلق فالدول توجد في نظام فوضوي ، وهذا الأخير هو الذي يحتم على الدول اتخاذ سلوك معين، ويبرهن على ذلك أيضا من خلال المقارنة بين دور الدولة في النظام الدولي، دور الشركة في السوق بحيث يكفي معرفة الضغوطات التي يمارسها السوق على الشركات ولا حاجة لنظريات الشركات لفهم عمل السوق و دوره. أو بالنسبة ل "روبرت جيبيلين" من خلال دراسته "الحرب و التغير في السياسة الدولية" يرى و يعتبر ان النسق الدولي هو في استقرار مالم يكن هناك دول غير راضية بالوضع القائم ، إذا رأيت أن الفائدة المتوقعة تفوق الكلفة، فالدول تسعى إلى تغيير النسق الدولي عن طريق التوسع الجغرافي و الاقتصادي و السياسي، يرى هذا الأخير أن هناك عوامل داخلية في الدولة تلعب دورا أساسيا في صعودها أو هبوطها و يضرب مثلا بتأثير مستوى الرفاه في امتناع عن الروح القتالية، و درجة التحديث الداخلي و تراجع النمو الاقتصادي و حجم الاستثمارات الخارجية. و قام بالتركيز على الاقتصاد السياسي، فهو على خلاف دعاة الاعتماد المتبادل و الليبرالية التجارية و الذين يرون أن الدولة كفاعل في العلاقات الدولية أصبحت ذو تأثير محدودو يعتبر بأن الدولة هي التي تسهر على استمرار و بقاء نظام التجارة الدولية، فالدولة هي التي تنظم السوق، فيما لا يستطيع السوق تحقيق ذلك، و تتمثل بالخصوص في البنية التحتية لضمان حقوق الملكية و الالتزام بالعقود و المعاهدات، وذلك لأن الدولة تمتلك وسائل القهر و الإكراه، و تستطيع فرض القانون بالقوة و هي التي تملك الجهاز الرادع . و إذا ما أردنا أن نحصر أدوات التحليل الأساسية للفكر الواقعي المعاصر تتمثل في أربعة عناصر وهي :1-توازن القوة، 2- فوضوية النظام الدولي، 3- بنية النظام الدولي، 4- الإعتماد على الذات.

1- مبدأ توازن القوة (ميزان القوي):

إن مفهوم توازن القوة حسب هذا المنظور يعني تعادل بين مقدرة القوة العسكرية التي تمتلكها القوى المميزة للنظام الدولي، هذا من جهة، و ثانيا : وجود إدراك لدى القوى المشكلة لنفس النظام الدولي، بضرورة وأهمية هذا التوازن والتساوي،، باعتباره وسيلة ناجعة لتحقيق الأمن والمحافظة

عليه.¹² فالدول لها قدرات ذاتية تمكنها من تحقيق التوازن في ظل هذا النظام، وهو بالمقابل يرفض إقامة أحلاف لتحقيق هذا التوازن، والسبب في ذلك هو إيمانه بالقدرات الذاتية للدول.¹³

2- الفوضوية:

و معنى فوضوية النظام الدولي عند الواقعيين الجدد هو إنتفاء سلطة دولية أو عليا فوق الدول لها سلطة الإكراه والقمع، وهذا ما يجعل الضاهرة الصراعية الميزة الأساسية لهذا النظام، وذلك لعدم وجود هيئة عليا أو مؤسسات تسن وتفرض القوانين على الدول، نتيجة لموضوع السيادة و اثرها على تحقيقي وجود سلطة عليا فوق الدول.¹⁴

3- بنية النظام الدولي:

هذا يشرحه المنظر "والتر" قائلا أن النظام هو عبارة عن: بنية، ووحدات متفاعلة ،و يعني بالبنية ان الدول ووحدات السياسية لديها القوة و الإمكانيات موزعة بطريقة ما ، وهذا التوزيع يحدد شكل النظام، وأي تغير فيه يعني هو عبارة عن تغيير للنظام بشكل كلي ، و من خصائص النظام الدولي.

4- الإعتماد على الذات :

يعتقد الواقعيين الجدد، فإن الاعتماد على الذات أو ما يسمى المساعدة الذاتية ، سببها وجود نظام دولي فوضوي ، وبالتالي طبيعة النظام الدولي هي التي تدفع الدول إلى الاعتماد على ذاتها في إدارة شؤونها، وكمثال فإن الإكتفاء الذاتي هو هدف رئيسي للدول أو الوحدات السياسية، وذلك بهدف حصول الدول على أكبر قدر ممكن من الأمن و السلام العالمي .¹⁵

II. المقاربات التنقيحية في المنظور الواقعي :

تتناول الدراسة في هذا الجزء الاتجاهات الجديدة للواقعية و نخص بالذكر كل من الواقعية الكلاسيكية الجديدة و الواقعية الدفاعية،و الواقعية الهجومية، متجنبين الجدل القائم بين الأكاديميين حول الحدود بين الاتجاهات الحديثة و الاتجاهات التي سبقتها.

1. الواقعية الكلاسيكية الجديدة:

هاته الأخيرة تأثرت بأفكار الواقعية الكلاسيكية ،و أيضا بأفكار الواقعية الجديدة فيما يتعلق بمفهوم النسق الدولي، و ترى أن توزيع القوى في العلاقات الدولية هو العامل الأساسي الذي يوجه

¹² عبد الجليل زيد المرون، "الخليج وخيار التوازن الاستراتيجي: نمط المعوقات النبوية"، جريدة الرياض، ع. 13962، (15 سبتمبر 2006)، ص. 20.

¹³ Kenneth N. Wlatz, *Theory of International Politics*, (Addison-wesly, 1979), P.126

¹⁴ Ibid, pp.87-101

¹⁵ Ibid, p.126.

سياسات الدول الخارجية. و من أهم رواد هذا الاتجاه "راندلشويلر"، "طوماس كريبتسن"، "وفريد زكريا". و حسب "راندل شويلر" فإن الحوافز التي توجه الدول هي الخوف و الطمع، وسياسات الدول يشكلها مزيج من القوة و المصلحة، و يرى أن القدرات المادية للدول و توزيع القوة بينها هي نقطة بداية التحليل في العلاقات الدولية، و يعطي أهمية كبيرة للعوامل الداخلية للدول في تشكيل سياستها الخارجية، و العملية السياسية تعتبر العنصر الرابط بين استجابة السياسة الخارجية و القوى الخارجية كما أن سلوك الدول نحو التوازن يميل إلى احد الخيارين إما بزيادة القدرات الداخلية أو التحالف مع قوى دولية.¹⁶

حسب النيو واقعيين ترتكز العقلانية في السياسة الخارجية، على طبيعة النظام الدولي، والفاعلين الأساسيين فيه، و دوافع السلوك الخارجي للدولة، و ذلك في الحالة المستقرة، أين تملك القدرة على التقدير، والمفاضلة بين البدائل المتاحة، في سعي الفاعلين الأساسيين لتجريح الخيار المفضي إلى تعظيم المكاسب وتقليل المخاطر. وإذا كانت "الدول فواعل عقلانيين يسعون لتعظيم الفوائد وتقليل التكاليف التي تسير جنباً على جنب مع سعيها لتحقيق أهدافها"،¹⁷ فهي توجه سياستها الخارجية في الاتجاه الذي يحقق أهدافها، والمتمثلة أساساً في ضمان أمنها، والحفاظ على وجودها كوحدات مستقلة في النظام الدولي المتسم بخاصية أساسية حسب النيو واقعية أنه "قوضي ولا مركزي"،¹⁸ ما يجعلها تسعى لاكتساب القوة التي توصلها لحماية مصالحها. كما تعتبر مدرسة الواقعية "أن وسائل السياسة الخارجية للدولة وغاياتها يجب أن تأخذ بعين الاعتبار عند تحديدها، القوة التي يمكن تدبيرها للوصول إلى هذه الغايات دون أية مراعاة للمبادئ القانونية"¹⁹

يمكن أن نقسم و صنف نظريات الخيار العقلاني إلى نوعين: نظريات قوية تفترض معلومة كاملة بالقر الذي يتيح لها التعاطي معها بشكل أمثل، وأخرى ضعيفة تفترض عكس ذلك. كما ويمكن تقسيم المقاربات العقلانية إلى عقلانية جوهرية وعقلانية إجرائية. و بالرغم من إعتبار مفهومي المكاسب النسبية والمطلقة، إحدى الإسهامات الحديثة المهمة للواقعية، غير أن التطور الأكثر أهمية من الناحية التصورية يتمثل في الشرح المتنامي بين الاتجاهين الدفاعي الداعي إلى المحافظة على الاستقلال، والهجوم الذي يدعو إلى تبني سياسات ترمي لتوسيع النفوذ. رواد الاتجاه الدفاعي (كينيث، وولتز، فان إيفيرا، جاك سنايدر) يفترضون أنه ليس للدول مصالح كبيرة في الغزو العسكري، و يرون أن التكاليف المترتبة عن السياسات ذات النزعة العسكرية تفوق عادة الفوائد المرجوة منها. وتبعاً لذلك فإنهم يرون أن الحروب التي تخوضها الدول الكبرى تحدث عموماً نتيجة لشعور مبالغ فيه بالخطر والذي تغذيه مجموعات

¹⁶Colin Elman, *Op.cit*, pp.16-17.

¹⁷ تاكايوكي يامامورا، " مفهوم الأمن في نظرية العلاقات الدولي"، ترجمة: عادل زقاغ، في علم السياسة والعلاقات لدولية: قراءات عالمية، مجلد: 1، (2005)، ص. 36.

¹⁸ Fatih Tayfur, "Systemic-Structural approaches ,*World-System analysis and The Study of Plicy*" in METU Studies in Development, 27(3)2000 , p. 17.

¹⁹ إينس كلود، النظام الدولي والسلام العالمي، ترجمة: عبد الله الحريان (القاهرة: دار النهضة العربية، 1963)، ص. 11.

داخلية، كما يعود أيضا إلى الثقة المفرطة في فعالية العمل العسكري. في حين نجد أن الهجوميين ومنهم (إريك لابس، وجون ميرشايمر، وفريد زكريا) يرون أن الفوضى تدفع الدول للعمل على تعظيم قوتها .

هناك العديد من المواضيع التي يختلف بشأنها الواقعيون في السياسة الدولية ،كما أن هذا التباين يساعد على تفسير السبب الذي يجعل الواقعيين يختلفون حول مجموعة من القضايا مثل السلوك الخارجي للدول في أوروبا، فالدفاعيين يرون أن الحرب نادرا ما تكون ذات فائدة، وهي في العادة نتاج النزعة العسكرية والقومية المفرطة خاصة في أوروبا ما بعد الحرب الباردة، فإنهم يخلصون إلى أن السلوك الخارجي للدول ستكون ذات نزعة سلمية. بالمقابل نجد "جون ميرشايمر" وغيره من "الهجوميين" يعتقدون أن الفوضى تدفع القوى الكبرى إلى التنافس بغض النظر عن خصائصها الداخلية، بحيث تصبح العقلانية نسبية تماما ، و بانعدام العقلانية تصبح النظرية عاجزة عن التفسير، كما أن المنظور الواقعي هو بالأساس لتفسير السلوكيات العقلانية²⁰

أ- الخيط الناظم:

لا خلاف بين الواقعيين من فوضوية النظام الدولي وحسب والتز فإن النظام الدولي ذو طبيعة فوضوية، بمعنى أن النظام الدولي غير هرمي. وبتعبير آخر، لا توجد سلطة فوقية تُخضع العلاقات بين الدول لمنطق معين. وفي ظل بيئة فوضوية كهذه، فإن المبدأ الناظم هو أن كل دولة تعتمد على ذاتها. ولا يصبح أمن الدولة هدفا وحيدا فحسب، بل أساسيا. وبذلك، فإن "الدول قد تسعى لتحقيق أهداف أخرى تصب في النهاية لصالح تعزيز الأمن".²¹ وفي ظل النظام الفوضوي تصبح هنا العقلانية نسبية بمعنى يصبح هناك عدم القدرة على التنبؤ بما ستكون عليه سلوكيات الدول الأخرى، مما يرجح دائما السيناريو الأسوأ، وطالما أن ذلك يعني أن الاحتمالات السيئة واردة جنبا إلى جنب مع الاحتمالات الايجابية فإن الدولة تمنحها أهمية خاصة، وذلك طبيعي كون الحفاظ على البقاء يحظى بالأولوية حسب المنظور النيوواقعي. لكن عندما تأخذ الدولة في الحسبان تشكل وتراكم الإدراكات السلبية عن الوحدات الأخرى في النظام فإن ذلك يعزز المخاوف ويولد المعضلة الأمنية او ما يعرف بالمأزق الأمني الذي تكلم عنه باري بوزان.

و حتي نتمكن من الفهم السليم و الكامل للأفكار التي جاء بها الواقعيين نستعين بفكرة " موديلسكي " هذا الأخير طرح إشكال مفاده من يحكم هذا المجال المفترض ، أي من يسيطر على هاته البنية السياسية العالمية، و ماهي وسائل هاته السيطرة وإن إعترف أنه لا توجد سلطة مركزية، ولا توجد دولة عالمية لها سلطة على الدول الأخرى لتقوم بفرض القواعد وإعطاء الأوامر، لكن ذلك لا يعني بالضرورة، حسب

²⁰ ستيفن وولت، "نظريات العلاقات الدولية: عالم واحد ونظريات متعددة". ترجمة عادل زقاق، في علم السياسة والعلاقات لدولية: قراءات عالمية، مجلد 1: عدد 1، 2005، ص. 99.

²¹ Volker Rittberger, *Approaches to the Study of Foreign Policy Derived from International Relations Theory*, (Working Paper Nr. 46, Tubinger Arbeitspapiere Internationalen Politik und Friedensforschung, 2004),p. 12.

موديلسكي، غياب النظام أو السلطة بشكل مطلق. فالنظام السياسي العالمي تقوده وتتزعّمه الدولة القائدة، وجود هذا القائد في حد ذاته هو ما الامن و السلام في النظام الدولي.²² لا يمكن في ظل هذا الوضع للدول الأخرى أن تخرج من اللعبة إن الدول الضعيفة يصعب عليها في نفس الوقت ممارسة نفوذها، وبالمقابل تملك الدول القوية القدرة للدفاع عن استقلاليتها، بل أكثر من ذلك ممارسة التأثير على الآخرين. وبالنتيجة فإن وضع "القوة المقارن" بالنسبة لكل دولة هو العامل الذي يفترضه الواقعيون.²³ كما انه رغم أن الوحدات السياسية يمكن أن تعظم قيمة النوايا السلمية لجيرانها، وقد تثق أيضا في الضوابط الدولية والمؤسسات التي لا تعطي أية شرعية للعُدوان والتي تغذي التعاون الدولي، ولكنها واعي دوما بأنها لا تستطيع أن تعتمد على ديمومة وفعالية مثل هذه الظروف. إذن، وفي ظل هذه البنية الفوضوية "تعتبر الفوضى والقوة عبارة عن مقيدات تحد من نطاق الخيارات المتاحة للدول، وهذه القيود تستجيب لها الدول بشكل عقلاني بحيث يؤدي إلى توازن تلقائي للقوى، وهو التوازن الذي يعاود تشكيله حالة وجود قوة مهيمنة. ويتضح من التحليل السابق لطبيعة المبدأ الناظم من منظور نظمي أن لا قيود بنيوية على سلوك الدول عدا معيار التوزيع النسبي للقوة، وهو ما يقود الدول إلى مبدأ آخر مستمد من المبدأ الأول وهو مبدأ المعاملة بالمثل.

ب_ الموقف و تعريفه:

رغم نقص العقلانية في هذا المبدأ و رغم أنه قد يكون هذا المبدأ أقل عقلانية في نظر الكثيرين، كونه لا يخضع لحساب المكاسب وتقدير المضار، فالسلوك الخارجي للدولة في لحظة معينة يتأثر بسلوك الوحدات الدولية الأخرى تجاهها. حيث تستقبل الدول بواعث عديدة من الوحدات الفاعلة في النسق الدولي، وهذه البواعث قد تكون ذات طابع صراعي أو تعاوني، ويتم الرد عليها بالاستجابة، وهذه العملية قوامها "الفعل ورد الفعل" لكل فعل رد فعل يساويه في الشدة و يعاكسه في الإتجاه. وقد انتهى أحد دارسي السياسة الخارجية لثمان وسبعين دولة نامية، إلى أن "السلوك الصراعي الدولي لدول العالم الثالث يتفق إلى حد كبير مع علاقة الحافز والاستجابة، حيث أن السلوك الصراعي الذي توجهه الدولة إلى الدول الأخرى في الإقليم نفسه هو نتيجة للسلوك الصراعي الذي تستقبله الدولة من تلك الدول".²⁴ وبالي إن أهمية هذا المبدأ في تفسير السياسة الخارجية يتعلق بإمكانية تسوية الصراعات الدولية. ذلك أنه إذا تبين أن السلوك السياسي الخارجي للدولة هو رد فعل لسلوك الدولة الأخرى، وأن الصراع بينهما هو عملية تفاعلية قوامها الفعل ورد الفعل، فإنه من الممكن كسر الحلقة المفرغة عن طريق قيام إحدى الدولتين بتقديم تنازل من طرف واحد،

²² Fatih Tayfur, op cit, pp. 16-20.

²³ Volker Rittberger, Op. Cit., p. 17.

²⁴ لويد جنسن، "تفسير السياسة الخارجية"، ترجمة: محمد بن أحمد مفتي و محمد السيد سليم (الرياض: منشورات جامعة الملك سعود، 1989) ص. 280.

أو إشارة من جانب واحد، باستعداد الدولة لتسوية الصراع، وهو ما أسماه "شارلز أوسقود" التخفيض التدريجي للتوتر.

و هنا نلاحظ أن لقدرة التفسيرية لنموذج " الفعل - رد الفعل " تقل ، وأن السلوك السابق للدولة أكثر قدرة على التنبؤ بسلوكها الراهن،²⁵. لكن في اعتقادنا أن الامر الأكثر أهمية من وجهة نظر السياسة الخارجية هو: هل يؤدي سباق التسلح بالضرورة إلى التصادم و هذا توضحه الدراسة التي اقام بها هنتغتون: "أن هناك علاقة عكسية بين طول الفترة الزمنية لسباق التسلح وبين احتمال نشوب الحروب نتيجة لهذا السباق"،²⁶ أي أن إحتمال نشوب حرب بين الدول الداخلة في السباق يزداد في المراحل الأولى، وتخف بعدها حدة التوتر. كما أكد هنتغتون على أن احتمالات نشوب الحرب تزداد في حالة سباق التسلح الكمي عنها في حالة سباق التسلح الكيفي، أي أنه في الاتجاه العام تميل التفاعلات التي تستند إلى مبدأ المعاملة بالمثل إلى اكتساب خصائص معينة تكون مستقلة عن المبدأ في حد ذاته.

ج- الحركية بمنطق الربح و الخسارة (العقلانية):

إن العقلانية في السياسة الخارجية تحتم على أن تمشي بمنطق الربح و الخسارة أي السعي لتعظيم المكاسب و هذا ما تفترضه العقلانية، وفي ظل التعارض في المصالح بين الدول تارة وتوافقها في بعض المرات، يجعل كل ذلك من التفاعل بين وحدات النظام الدولي يأخذ طابعا استراتيجيا، يستوجب تبني إستراتيجيات المساومة العقلانية، أو التكتل في شكل تحالفات وأقطاب بما يكفل تحقيق مصالحها. ينطوي التفاعل الاستراتيجي على خاصية تجعله يتميز عن التفاعل المنفعي الذي يتمحور حول التوصل إلى التسويات، تتمثل هذه الخاصية من منظور نموذج المباريات في كون الفاعلين يتعاملون مع بعضهم بمنطق اللعبة الصفرية.²⁷ وعموما، تقارب المداخل العقلانية لمختلف الظواهر السياسية من منظور المساومات والمفاوضات التي تجمع عدة فاعلين، يسعى كل منهم إلى تحقيق مصالحه، بحيث تكون المحصلة النهائية للتفاعل بينهم، بمثابة نتيجة لمسار أو مجموعة من العمليات التي يمكن المقاربة له من منظور المباريات.²⁸ فأغلب الباحثين و أغلب منظري المباريات يوافقون على أن التفاعلات الإستراتيجية بين وحدات النظام الدولي يجب أن توضع في "إطار مفاهيم اللعبة غير الصفرية المتعددة الأطراف والتي قد لا تعني أن خسارة طرف من الأطراف هو بمثابة مكسب للطرف الآخر"،²⁹ خاصة فيما تعلق بموضوع التسلح، ونزع السلاح، والأمن الدولي، و كيفية تحقيق الاستقرار.

²⁵ لويد جنس، المرجع السابق، ص. 284.

²⁶ المرجع نفسه، ص. 290.

²⁷ حسن محمد وجيه، مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي (الكويت: عالم المعرفة، 1994)، ص. 25.

²⁸ عادل زقاغ، إدارة النزاعات الإنشائية: دور الطرف الثالث، مذكرة معدة لنيل شهادة الماجستير، جامعة باتنة، 2004/2003، ص. 99.

²⁹ جيمس دورتي، روبرت بالاستغراف، مرجع سابق، ص. 348.

2. الواقعية الدفاعية (الحمائم):

يري الواقعيون الدفاعيون أو ما يسمو بالحمائم في العلاقات الدولية أن الهدف الذي تبحث عنه الدول هو الأمن، فالتهديد الذي تواجهه الدولة يأتيها بصفة أساسية من الدول الأخرى، و تشترك الواقعية الدفاعية مع الواقعية الجديدة في مسألة الأمن، و حسب الواقعية الدفاعية فإن التكنولوجيا السائدة و الأحداث الجغرافية ترجح في الغالب سلوك الدفاع على الهجوم. لأن امتلاك القوة و تراكمها لا يتم بسهولة و يسر، كما أن تحدي القوة المركزية الكبرى من قبل دولة محيطة أخرى ليست عملية سهلة المنال. و بالتالي فإن الدول تسعى إلى الإبقاء على الوضع السائد. و حسب والتز فإن البرنامج البحثي للواقعية الدفاعية يواجه صعوبة تفسير سلوك الحرب و الهجوم، فالسلوك الدفاعي غالبا ما يساء فهمه من قبل الدول الأخرى على أنه استعداد أو مبادرة هجومية.³⁰

3. الواقعية الهجومية (الصقور):

و هذا الاتجاه هو عكس الاتجاه الدفاعي، و حسب هذا الاتجاه فإن الدول تبحث عن أقصى قدر من القوة، حتى تحافظ على وجودها و استمرارها، على عكس المنظور الدفاعي الذي يرى أن الدولة تبحث عن مستوى كاف من القوة. و من أبرز ممثلي هذا الاتجاه جون مير شايمر الذي له كتاب تراجيديا سياسات القوى الكبرى، و حسب هذا الأخير فإن الدولة تسعى إلى تحطيم قوة الدول الأخرى و بالتالي فهي تسعى إلى امتلاك أقصى قدر من القوة، و يعتبر أن القوى الكبرى في النسق الدولي تملك قدرة هجومية بإمكانها أن تحطم قوة بعضها البعض ، فحسبه البقاء هو الهدف الأساسي للدولة ، و الدول هي فاعل عقلاني. و بالتالي تسعى كل دولة إلى المزيد من القوة بهدف الوصول إلى الوضع المهيمن إقليميا، و حسبه يوجد ثلاث أنواع من سياسات الهيمنة و ذلك حسب طبيعة الدول، فالدولة القارية تسعى إلى الهيمنة الإقليمية على الأراضي المحيطة بها بهدف تحقيق الأمن، بينما الدول الجزيرية مثل بريطانيا فتسعى للتوازن ضد دول أخرى تكون قارية في العادة، و أما النوع الثالث من الدول فهي الدولة المهيمنة المسيطرة على الإقليم مثل الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية القرن العشرين، و حسب هذا الأخير فإن اختلال التوازن في توزيع القوى بين الدول الكبرى ، هو الذي يؤدي إلى الحروب.³¹

و بالنسبة للقوة الصلبة، فهي تعني استخدام القوة العسكرية والضغوطات المباشرة على الدول، و تتمثل مصادر القوة الخشنة في القوة العسكرية، القوة الاقتصادية، و ممارسة الضغوطات على الأنظمة، و الحصار و التحالفات ضد الدول، و يمكن أن نلاحظ ملامح القوة الصلبة في السياسة الخارجية الأمريكية، و نضرب مثلا بسياساتها في العراق. إلا أن النتائج التي تؤدي إليها القوة الصلبة لا تعود في الغالب بفوائد

³⁰المرجع نفسه ، ص ص 320-348
³¹المكان نفسه.

كبيرة على الدول، و هذا ما دفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى تغيير إستراتيجيتها في العالم، فأصبحت بذلك تعتمد على مفهوم القوة الذكية "SmartPower" الذي يجمع بين القوة الصلبة، والقوة الناعمة.³²

الخاتمة :

يشكل المنظور الواقعي بكل اتجاهاته المنظور الأكثر ملائمة لفهم و تفسير أغلب سلوكيات الدول على مستوى العلاقات الدولية ، و تساعد هاته النظرية الباحث في فهم و تفسير و حتى التنبأ بأغلب الظواهر المشكلة للعلاقات الدولية خاصة تلك التي تحمل منطق الصراع و التنافس ، ورغم الإنتقادات التي وجهت لهذا المنظور كونه يعتبر منهج الأقوياء و يعبر عن سياسات الدول القوية ، فهو منهج الأقوي ، إلا أنه لديه أدوات تحليلية ذات ثقل و قدرة تفسيرية لأغلب ما يحدث على مستوى النظام الدولي و العلاقات الدولية ، خاصة تلك السياسات التي تعتمد على منهج القوة الصلبة أو الخشنة .و تشكل الإتجاهات التنقيحية غظافة نوعية لهذا المنظور .فكل من الواقعية السياسية الكلاسيكية ، و الواقعية الجديدة ن و الواقعية الكلاسيكية الجديدة و الإتجاهات التنقيحية مثل الإتجاه الهجومى و الدفاعى كلها ساهمت في تفسير العديد من الظواهر الدولية و لفترة طويلة جدا من الزمن ، و رغم ظهور غقترايات جديدة تواكب التطورات الحاصلة على مستوى الساحة الدولية مثل المنظور الليبرالى و المنظور التكويني (نظريات ما بعد الحداثة) إلا أن المنظور الواقعي حافظ على مكانته و قدرته التفسيرية .

قائمة المراجع :

أولا :باللغة العربية :

1. إينس كلود، *النظام الدولي والسلام العالمي*، ترجمة: عبد الله العريان (القاهرة: دار النهضة العربية، 1963)
2. تاكايوكي يامامورا، " مفهوم الأمن في نظرية العلاقات الدولي"، ترجمة: عادل زقاغ، *في علم السياسة والعلاقات لدولية: قراءات عالمية*، مجلد 1: عدد 1، (2005)
3. جيمس دورتي و روبرت بالسيغراف، *النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية*، ترجمة: وليد عبد الحي (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع، 1985)
4. حسن محمد وجيه، *مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي (الكويت : عالم المعرفة، 1994*
5. ستيفن وولت، "نظريات العلاقات الدولية: عالم واحد ونظريات متعددة"، ترجمة عادل زقاغ، *في علم السياسة والعلاقات لدولية: قراءات عالمية*، مجلد 1: عدد 1، 2005

³²Ted Galen Carpenter, *SmartPower: Toward Product Foreign Policy For America* (Washington: CATO Institute, 2008), pp06-20

6. عادل زقاغ، *إدارة النزاعات الإثنية: دور الطرف الثالث*، مذكرة معدة لنيل شهادة الماجستير، جامعة باتنة، 2004/2003
7. عبد الجليل زيد المرهون، *الخليج وخيار التوازن الاستراتيجي: نمط المعوقات البنوية*، جريدة الرياض، ع. 13962، (15 سبتمبر 2006)
8. فريد زكريا *من الثورة إلى القوة: الجذور الفريدة لدور أمريكا العالمي*، ترجمة: رضا خليفة، (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة و النشر، ط1، 1999)
9. لويد جنسن، "تفسير السياسة الخارجية"، ترجمة: محمد بن أحمد مفتي و محمد السيد سليم (الرياض: منشورات جامعة الملك سعود، 1989)
10. ثانيا: باللغة الأجنبية:
11. Colin Elman 'Realism' In : Martin Griffiths, *International Relations Theory For the Twenty Century: An Introduction* (New York: Routledge, 2007)
12. Fatih Tayfur, "Systemic-Structural approaches , *World-System analysis and The Study of Policy*" in METU Studies in Development, 27(3) 2000
13. Glenn H. Snyder, Mearsheimer's, *World offensive realism and the Struggle for security*, A Review essay international security, Vol 27, No 1, (Summer 2002)
14. Kenneth N. Waltz, *Theory of International Politics*, (Addison-wesly, 1979)
15. Ted Galen Carpenter, *SmartPower: Toward Product Foreign Policy For America* (Washington: CATO Institute, 2008)
16. Tim Dunne and C. Schimdt, *Realism*, in John Baylis and Steve Smith, *the globalization of world politics, An introduction to international relations*, (Oxford: University Press, 3rd edition, 2005),
17. Volker Rittberger, *Approaches to the Study of Foreign Policy Derived form International Relations Theory*, (Working Paper Nr. 46, Tubinger Arbeitspapiere Internationalen Politik und Friedensforschung, 2004)